مناهج النحو العربي في التعليم الجامعي بين الواقع والمأمول

الاستاذ المساعد الدكتور
أمجد كامل عبد القادر
جامعة البصرة – كلية الآداب

ملخص البحث

يبدو أن مشكلة تعليم اللغة العربية في المؤسسات الجامعية أضحت تشكل عامل قلق في مسيرة التعليم ، مما دفع الباحثين إلى استقصاء أسباب الضعف بغية استنتاج الحلول ، إذ تعدّ المناهج اللغوية التي تعتمدها الجامعات العراقية في التعليم من أهم الأسباب والمشكلات التي ينبغي النظر فيها ومعالجتها علاجاً جذريّاً ينهض بالواقع العلمي لخريجي أقسام اللغة العربية ويحسن من أداء مستواهم اللغوي ، ولاسيما درس النحو العربي الذي يشكّل اليوم عامل قلق لدى طلبة العربية ، وهذا ما نلمسه في الإخفاقات الكبيرة التي يتعرض لها أولئك الطلبة في مختلف مراحلهم التعليمية في الجامعة. ولئن كان هذا المؤتمر اليوم في كلية الآداب يشكّل رمزا لعمق الإحساس بالمسألة والمسؤولية ، فإنه يأتي حلقة مميزة ضمن سلسلة طويلة من المؤتمرات والندوات التي عقدت لدراسة شؤون المناهج اللغوية تعليما وتعلما.

إنَّ مناهجنا التعليمية اليوم تعتمد اعتمادا كليّا على ما وضعه القدماء وألّفوه في عصورهم ، ومن المعلوم أن علماء اللغة من الرعيل الأول وضعوا كتب النحو معتمدين أساليب الجمع والاستقراء والاستنتاج ، فجاءت القواعد صورة أمينة لمستوى عصرهم ومستوى فهمهم للغة ، وهو مستوى عال ، وفي المراحل التالية اتسعت الهوة بين القواعد واللغة ، وأصبحت القواعد بناءً نظريا مستقلا ، ولعل هذا ما تعاني منه اللغة والقواعد وما يعاني منه المعلمون والمتعلمون ، وأوضح مثل على ذلك حال بعض المعلمين والمتعلمين الذين يتقنون القواعد ويستظهرون شواردها أو واردها ، قياسها وشواذها ، ولا يتقنون اللغة ذاتها ، ولا يتحسّسون روحها وعبقريتها ولا يحسنون التعبير عنها.

إن الجهود التي بذلت في سبيل تطوير مناهج تدريس النحو وتيسير تعليمه لم تجد نفعا ، لأنها لم تجد طريقها الى الكتاب المنهجي الجامعي ، فبقينا نقر التوصيات والمقترحات ثم نعود لتعليم النحو من كتب القدماء بدءاً من منظومة ابن مالك وشروحها وانتهاء بشذور الذهب والآجرومية وشروحها ، ليس في هذا القول تقليل من قيمة تلك الكتب ومؤلفيها المحققين الأجلاء ، ولكن تعقيد مادتها النحوية وأساليب تأليفها ، وقدامة عباراتها وغرابتها هو ما يشكو منه طلابنا وهو ما نسعى إلى تجاوزه في النحو التعليمي ونتركه ذخيرة للنحو العلمي.

إن واقع مناهجنا النحوية التي ندرسها اليوم يحتم علينا أن نقف لصناعة المنهج المأمول الذي يرفع بالمستوى العلمي والتعليمي للباحثين في علوم اللغة والنحو ، ونذكر هنا جملة من المقترحات التي ينبغي أن تتصف بها المناهج النحوية التعليمية:

– توحيد حدّ المصطلح النحوي أو تعريفه تعريفا واحدا ، بعيدا عن الاجتهادات التي تؤدي إلى البلبلة وعدم الاتفاق.
– فصل المصطلح الصرفي عن المصطلح النحوي لتداخلهما في كثير من الكتب النحوية.
– تخليص النحو مما علق به من آثار العلوم الأخرى ولاسيما التعليل.
– التخفيف من الشواهد الشعرية ولاسيما مجهولة النسب ، والإكثار من الشواهد القرآنية وتحليلها .

UNIVERSITY ARABIC GRAMMAR TEXTBOOKS APPLCATION VS. EXPECTATION

BY:Asst.Prof.Amjedd Kamill Abdul-Kadir(Ph.D.)

ABSTRACT

Examining the Arabic grammar textbooks at the university level, one can safely find out that these grammars are completely based on all that the pioneers wrote a long time ago. This means that the resource books in question were originally written for their own generations who were with levels of perception and comprehension totally different from present day people. This is on the one hand. On the other hand,modern linguists have undoubtedly done their best to simplify Arabic grammar for their learners because they have already realized that what is actually taught to the university students is far from what is expected. That is why there is a crying need for developing new grammar textbooks that will help the learners improve their levels and better their knowledge as far as linguistics and grammar are concerned.

The present study aims to develop new Arabic grammar textbooks that satisfy the needs of the students and that match with their expectations. Lt is after planning for writing the future University grmmar textbook.

المقدمـــة :

يبدو أن مشـكلة تعلـيم اللغـة العربيـة فـي المؤسسـات الجامعيـة أضحت تشكل عامل قلق في مسيرة التعلـيم ، ممـا دفـع البـاحثين إلـى استقصاء أسـباب الضـعف بغيـة اسـتنتاج الحلـول ، إذ تعـدُ المنـاهج اللغوية التي تعتمدها الجامعات العراقية فـي التعلـيم مـن أهـم الأسـباب والمشكلات التي ينبغي النظر فيهـا، ومعالجتهـا علاجـاً جـذرياً يـنهض بالواقع العلمـي لخريجـي أقسـام اللغـة العربيـة ، ويحسـن مـن أداء مستواهم اللغوي ، ولا سيما فـي درس النحـو العربـي ، الـذي يشـكل اليوم مشكلة واضطرابا لدى طلبة العربيـة ، ولـئن كـان هـذا المـؤتمر اليـوم فـي كليـة الآداب يشـكل رمـزاً لعمـق الإحسـاس بالمسـألة والمسؤولية ، فأنـهُ يـأتي حلقـة مميـزة ضـمن سلسـلة طويلـة مـن المؤتمرات والندوات التي عقدت لدراسة شؤون المنـاهج اللغويـة تعليمـاً وتعلماً.

إنَّ مناهجنا النحوية التعليمية اليـوم تعتمـد اعتمـاداً كليـاً علـى مـا وضعهُ القدماء وألّفوهُ في عصـورهم ، ومـن المعلـوم أن علمـاء اللغـة مـن الرعيـل الأول وضـعوا كتـب النحـو معتمـدين أسـاليب الجمـع والاسـتقراء والاسـتنتاج ، فجـاءت القواعـد صـورة أمينـة لمسـتوى عصرهم ومستوى فهمهم للغة ، وهـو مسـتوى عـال، وفـي المراحـل التالية اتسعت الهوة بـين القواعـد واللغـة ، وأصـبحت القواعـد بنـاء نظرياً مستقلاً ، ولعل هذا ما تعاني منـه اللغـة والقواعـد ، ومـا يعـاني منه المعلمون والمتعلمـون ، وأوضـح مثـل علـى ذلـك حـال بعـض

المعلمين والمتعلمين الـذين يتقنـون القواعـد ويسـتظهرون شـواردها أو واردها ، قياسها وشـواذها ، ولا يتقنـون اللغـة ذاتهـا ، ولا يتحسسـون روحها وعبقريتها ولا يحسنون التعبير عنها .

لقد بات من الضروري النظر فـي وضـع المنـاهج التعليميـة لمـادة النحو العربي ، إذ تتعالى صيحات المعلمـين والمتعلمـين فـي الشـكوى من صعوبة المنهج النحوي المقرر ، وعلينـا اليـوم أن نمتلـك الشـجاعة الكافية لنطالب بإحداث التغييرات اللازمـة فـي هـذه المنـاهج التـي لا تتناسب والعصر الـذي نعيشـهُ ، وسـنحاول فـي هـذا البحـث تسـليط الضوء على المشكلات التـي تكتنـف مناهجنـا اليـوم ووضـع الحلـول اللازمة لها ، آملين أن نضع بعض اللمسات للنهـوض بـالواقع التعليمـي لأقسام اللغة العربية في الجامعات العراقية ، والله من وراء القصد .

أهمية النحو العربي وأهدافه

إنّ اللغة من أهم الخصائص والمقومات التي تسـتند إليهـا الأمـة فـي قراءة ماضـيها ومعرفـة حاضـرها واستشـراق مسـتقبلها ، لأنهـا أداة التخاطب والتفاهم ونقـل الأفكـار وتبادلهـا ، وهـي المظهـر الخـارجي الواقعي لوحدة الأمة وتماسكها ، كمـا أنهـا وسـيلة التعبيـر والإيضـاح والبيان والارتقاء .

والنحو عصب اللغة والأساس المتين الـذي تقـوم عليـه ، لأنـه بـه نفهم المعاني ونتذوقها ، وبالإعراب يفصح المرء عـن أفكـاره ويكشـفها ويخرجها إلى الآخـرين ، فيتواصـل معهـم ، ومـن هنـا تبـدو أهميـة الإعراب إذ هو ((الإبانـة عـن المعـاني بالألفـاظ ، ألا تـرى أنـك إذا

سمعت : (أكرم سعيدٌ أباه) و(شكر سعيداً أبوه) علمت برفع احدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ، ولو كان الكلام سِرْجاً واحداً لاستبهم احدهما من صاحبه))[١] .

ويرى ابن فارس أن الإعراب علم جليل أختص به العرب وأنه ((هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ولولاه لما مُيّز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام))[٢].

وذهب ابن قتيبة إلى أن الله عز وجل أمتن على العربية بأن جعل الإعراب فيها زينة وحلية وأداة فارقة ((بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين ، كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب ، ولو قال قائل : هذا قاتلٌ أخي بالتنوين ، وقال آخر : هذا قاتلُ أخي بالإضافة ، لدل التنوين على أنه لم يقتله ودل حذف التنوين على انه قد قتله))[٣].

وعدّد ابن خلدون أركان اللسان العربي فوجدها أربعة ، هي اللغة والنحو والبيان والأدب ، ونبّه على أن معرفتها ضرورية و ((أن الأهم المقدّم هو النحو ؛ لأنه به تتبيّن أصول المقاصد بالدلالة ، فيُعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة))[٤]. ويوازن بين علم اللغة وبين علم النحو فيجد أن النحو ((أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست اللغة كذلك))[٥].

إن الله تعالى قد قدّر لعلم النحو أن ينمو ويزدهر بعد أن ازدادت الألسنة انحرافاً ، وفشا اللحن حتى بين الأعْراب الخُلّص ، حيث ازداد إقبال الناس على تعلم النحو وإدراك مسائله ، ثم إذا ما هلت طوالع العصر العباسي الذي ازدهرت فيه العلوم بشتى أنواعها ومواضيعها،وجدنا هذا العلم قد اخذ صيغة مدرسية بحتة ، إذ أصبح علماً ينتشر شيوخه في الحلاقات يدرِّسون جزئياته، ويُقبل عليهم الطلاب على مختلف مستوياتهم ، إقبال المشغوف وتهالك الملهوف ، حتى إذا ما انتهت هذه الفترة كانت لهذا العلم قواعده ومقدماته ونتائجه ، وكانت له فيما بعد متونه وشروحهُ وحواشيه .

إنَّ نشوء النحو بين اللحن أو العجمة – كما يرى اغلب الباحثين – هي فكرة مجانبة للصواب ؛ وإنما وجد النحو ضرورة علمية اقتضتها ظروف الحياة العلمية الجديدة في الحضارة الجديدة التي ظهرت بظهور الإسلام وخروج العرب من الجزيرة ، وان للقران الكريم دافعاً كبيراً في وضع هذا العلم ، إذ جعل العلماء يشمرون عن ساعد الجد، ويعملون على وضع القواعد النحوية والاهتمام بها[٦] . فظهور اللحن سبب واحد وليس هو السبب الرئيس في نشوء علم النحو .

وللأهمية البالغة التي يتمتع بها هذا العلم بدأ المتخصصون من علماء العربية يضعون القواعد والأصول ، ويذهبون في دراسته وتدريسه مذاهب شتى ، ويؤلفون الكتب في جمعه وشرحه وتخريج مسائله ، والتعليل فيها ، وظهرت هناك العديد من المدارس النحوية ، كالبصرية والكوفية ، واستقلت كل مدرسة في آرائها عن الأخرى ، وظهرت مذاهب كثيرة في النحو ، مما أدى إلى تعقيده

وصعوبة ، حتى عُدَّ هذا العلم واحداً من أهم علوم العربية ، بل عمودها الفقري الذي حفظ اللغة العربية وآدابها وبلاغتها ، وأبقاها قوية شامخة على مر العصور والدهور .

أما في العصر الحديث فقد ظهرت محاولات عديدة دعت إلى تيسير النحو ، منها محاولة إبراهيم مصطفى عام ١٩٣٧م في كتابه (إحياء النحو) الذي يرى فيه أن النحويين قصروا مباحث النحو على الإعراب والبناء من غير أن يبحثوا خصائص الكلام من حيث التقديم والتأخير والنفي والإثبات والتأكيد ، ودعا فيه أيضاً إلى الابتعاد عن الفلسفة وإلغاء نظرية العامل والاحتكام في الإعراب إلى المعنى [٧] .

لقد استمرت محاولات التيسير ، ومحاولات إعادة النظر في قواعد اللغة العربية، حتى عقدت عام ١٩٥٧م في القاهرة مؤتمر مفتشي اللغة العربية ، الذي دعا إلى تبني منهج جديد في النحو ، يقوم على أساس أن الكلام العربي كلهُ مكون من جمل ومكونات وأساليب ، وتقوم الجمل على ركنين أساسيين هما : المسند والمسند إليه، والتكملات وهي كل لفظ يضيف إلى معنى الجملة الأساس معنى يكمله ، أما الأساليب فهي تعبيرات خاصة نطق بها العرب على الصورة التي وصل إليها العرب نحفظها ونقيس عليها [٨].

لقد صار النحو كما يقول الأستاذ الجواري : ((مشكلة من مشكلات التعليم في اغلب بلادنا العربية ، تقع بين طرفين متناقضين، أما دراسة ضحلة مهلهلة لا يعي فيها المؤلف والمدرس ما يقول ، وإنما تلفيق من آثار القدماء لا أصالة فيه ولا تطور ولا تطوير ، ونتف مبتورة من كتبهم لا تغني الدارس ولا تفتح ذهنه ، ولا تربي

فيه ملكة التعبير الصحيح عن نفسه ، أو القدرة على فهم النص فهما دقيقاً محكماً ، وإما دراسة تقليدية مرهقة مضنية لا ماء فيها ولا رونق ، ولا ارتباط وثيقاً بينها وبين واقع الحياة العقلية ، وإنما هي بالنسبة للدارسين أشبه بازدراء الصخر الصلد ، لا طعم فيه ولا غذاء ولا فائدة كبيرة تنتظر منه ، وصار جلّ أمر الدارسين والمدرسين ترديداً لعبارات الأقدمين ، واستظهاراً لآرائهم ، وحفظاً لمتون كتبهم وشروحها))[٩].

وقد ظلت كثير من الدراسات تعالج مسألة تجديد النحو وتيسره إلى يومنا هذا ، إلا أن مناهجنا لم تزل كما هي ، إذ لم يفتح عليها باب التسهيل والتيسير أو قل التعديل لكي نحقق من خلال المنهج المأمول ما نتوخاه من أهداف تدريس النحو العربي ، التي يمكن تلخيصها فيما يأتي :-

١- الأخذ بيد الطالب لتلافي الأخطاء النحوية التي تذهب بجمال الأسلوب، ويساعده على إنشاء كلام فصيح بأسلوب قويم ، ويجنبه الوقوع في اللحن والزلل .

٢- تحفيز الطالب على التفكير السريع والوقوف على الفروق الدقيقة في التركيب اللغوي .

٣- تمكين المتعلم من نقد العبارة اللغوية وبيان مظاهر الركاكة ومواطن الجمال والروعة فيها.

٤- إن النحو يكسب الطالب الدقة في الملاحظة والموازنة وتحري الحكم الصحيح الدقيق ، وينمّي عنده الذوق الأدبي ، لان الإعراب عملية تحليل للألفاظ والأساليب وتمييز صحيحها من سقيمها .

٥- يورث الطالب عادات لغوية صحيحة بعيدة عن التأثير بلغة العوام(١٠).

واقع المناهج النحوية في التعليم الجامعي

إنّ علم النحو من العلوم القديمة الحديثة ، وقد طوّرت تلك العلوم، وطوّرت مصطلحاتها ، ومناهج دراستها ، والأسس التي تقوم عليها ، وأهدافها وكان لابد للنحو أن يتطور أيضاً ، والنحو في لغات العالم تطورت دراسته ، وأبدع نحويّوه نظريات جديدة ، وأصبح للغة مدارس كثيرة ، وحاول النحويون العرب أن يطبقوا مقولات تلك المدارس على النحو العربي ، كالنحو التحويلي ، والنحو التوليدي ، مستفيدين من أن علم النحو جزء من علم اللغة وعلم اللغة كبقية العلوم لا وطن له ، وابرز كتاب حاول هذه المحاولة كتاب الدكتور تمام حسان (اللغة العربية معناها ومبناها).

والحق أن يقال في هذا : أن المقولات الغربية للنحو تنطبق على لغاتهم وبنية اللغات ليست واحدة ، ولا بد من الاختلاف في المقولات، لهذا لم ينجح كل الذين حاولوا تطبيق المقولات الغربية .

إننا نجد اليوم ارتفاع الصرخات وكثرة الشكاوى من مادة النحو العربي وهذه الشكوى ليست وليدة اللحظة ، فما زال الكثير من طلبة

العلم يشكون صعوبة النحو ومنهاجه وذلك منذ ولادة هذا العلم إلى يومنا هذا ، مما جعل بعض الباحثين يحمّلون النحو أعباء الشكوى والتذمر ، وينبغي هنا أن نبيّن بعض المسائل التي يجب فهمها قبل أن ننقذ المناهج النحوية،واذكر منها :-

١- إن أكبر خطأ منهجي وفكري وقع فيه غالبية الباحثين والدارسين هو تحميل النحو العربي مسؤولية تردي مستوى الأداء اللغوي الذي نعاني منه ، إن من الظلم الفادح للنحو – أيّاً كانت صعوبته – أن نحمله مسؤولية ضعفنا اللغوي ، لسبب بسيط ، وهو أن اللغة لا تُعلَّم بالنحو وحده، فاللغة سماعية تقوم على محاكاة العبارات والنصوص السليمة الفصيحة ولم يقم علم النحو إلا بعد أن بدأت سلائق الناس اللغوية تفسد .

٢- إن صعوبة النحو ظاهرة عالمية وليست خاصة بالعربية ، والنحو كأي علم ، ولا سيما العلوم البحتة ، له صعوباته وتعقيداته ، وليس مما يدرك للولهة الأولى ، فالرياضيات ليست سهلة ولا الفيزياء ، ولا غيرهما ، فهل صعوبة الرياضيات مثلا مدعاة لمهاجمتها ؟ وقد قدّمت للبشرية ما قدّمت ، وهل صعوبة الفيزياء مدعاة لهجرها ؟ وقد أنعمت على البشرية بما لا يحصى من المنافع ،إنّ أي علم ليس قابلاً للتسهيل أو التيسير ، وإنما طريقة تقديمه للملتقى هي القابلة للتطوير والتيسير ، والمنهج له أثره الواضح والكبير في ذلك .

٣- لا بد من التفريق بين النحو العلمي والنحو التعليمي ، وذلك إن بعض النحويين واللغويين – قدماء ومحدثين – سرعان ما يعلو صوتهم بالاحتجاج والنكير على أي مسعى لتطوير النحو واصلاح تعليمه ، خوفاً على هذا العلم من أن يداخله فساد، والواقع إن معظم أولئك المحتجين ممن لم يدّرسوا النحو ولم يواجهوا مشكلاته .

إن الغيرة على علوم العربية ومنها النحو فضيلة ، ولكن قتل تلك العلوم بالغيرة العمياء ، والحب القاسي يلتقي في النهاية مع قتلها باللامبالاة والكراهية .

نحن نتحدث هنا عن (النحو التعليمي) الذي يزوّد الطالب بما هو ضروري من قواعد اللسان العربي لا بما هو كمالي ، أو على حد عبارة الجاحظ في رسالته إلى المعلمين: ((أما النحو فلا تشغل قلبه- أي الصبي – إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه ، وشعر إن أنشده أو شيء إن وضعه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى))(١١) .

٤- إن ضعف الطلبة في المرحلة الجامعية في مادة النحو العربي ما هو إلا امتداد لتعليم قواعد النحو في مراحل ما قبل الجامعة ، إذ أن كثرة المناهج وتعددها وتغيرها في مراحل المتوسطة والثانوية أدت إلى ضعف الطلبة في أدائهم اللغوي ، وبالتالي صاروا يحفظون القواعد ويستظهرونها من غير فهم وإدراك لها ، وهؤلاء الطلبة عندما يلتحقون بأقسام اللغة العربية لا يملكون من الزاد إلا القليل ،

وهذا بدوره يؤدي إلى تخريج دفعات من أقسام اللغة العربية ، وهم أناس أميّون لا يفقهون من نحوهم إلا القليل القليل [١٢].

إن واقع المناهج النحوية التي تدرس في جامعتنا اليوم لا يحقق الأهداف المرجوة من تدريس هذه المادة الجليلة ، وذلك ان النحاة أسهبوا فيها وأطالوا وشرحوا وعللوا ، فالمبتدأ والخبر مثلاً أسمان مرفوعان ، فها هنا إذاً قاعدة ، ولكن النحاة القدماء لا يقنعون بهذا بل ينفقون أكثر من مئة صفحة في اخذ ورد ، ماالذي رفعهما ؟ ففريق من النحاة يقول المبتدأ رفعه الابتداء ، وآخر يقول إن المبتدأ والخبر مترافعان ، فذاك يرفع هذا ، وهذا يرفع ذاك ، وثالث يقول : بل الخبر رفعه الابتداء وحده ، ورابع يقول : رفعه الابتداء والمبتدأ معاً ثم يشرع كل فريق يدفع عن رأيه ، وينقض رأي غيره ، بالمنطق والحجة والقياس واستحضار الشاهد .

وكم يخطئ من يظن أن هذا التفكير النحوي ، المتسلح بكل صنف من صنوف أسلحة المنطق ، مقصور على بحث دون بحث ، أو مسألة دون مسألة ، بل شامل لكل بحث ولكل مسألة ، وحرام على نحاة البصرة ونحاة الكوفة أن لا يختلفوا في كل صغيرة وكبيرة من قواعد اللغة ، وها هي ذي مناهجنا لا تخرج عن كونها كتباً مليئة بالحجج والمنطق ، قليلة القواعد وكثيرة أعمال الفكر النحوي فيها .

إن هذه المناهج التي ندرِّسها لطلابنا ما هي إلا كتب وضعها القدماء لأبناء جيلهم وعصرهم ، إذ كانت عصورهم مليئة بالجدل العقلي والمناظرات العلمية والألغاز النحوية ، والنحاة معذورون

بوضع هذه المناهج لعصورهم ، إلا اننا في هذا العصر الحديث الذي يختلف بكل جزئياته وطبائع ثقافاته عن الأجيال المتقدمة ، والسؤال هنا ، هل طلابنا اليوم يتمتعون بتلك العقلية التي كان يتمتع أبناء القرن الرابع أو الخامس أو السادس الهجري وما بعده ؟ ! بالتأكيد إن الجواب (لا) ، لأن أهل تلك العصور كانوا يدركون اللغة بسليقتهم ، ولما ظهرت بعض بوادر النحو وضع النحاة قواعدهم وأسسوا لهذا العلم ، أما نحن اليوم فإن العامية تكاد تفتك باللغة الفصحى فضلا عن اختلاطنا بالأعاجم ، واصطناع بعض الألفاظ والتراكيب البعيدة كل البعد عن لغتنا العربية الفصيحة .

ويمكننا هنا تشخيص أهم المشكلات التي انتشرت بين صفحات كتب النحو القديمة ، ومنها كتاب شرح ابن عقيل لأنه المنهج المقرر في أقسام اللغة العربية ، ونذكر من هذه المشكلات ما يأتي :-

١- إن أول ما يوآخذ عليه النحاة القدماء في كتبهم هو استعمالهم للشواهد المبثوثة في كتبهم، فكثيرا ما كانت شواهدهم منفره وهذا مما يؤثر سلباً على المتعلمين ، إذ للشاهد قيمة وتأثير في الذهن والنفس، ومما يؤاخذ عليه ابن عقيل في الشواهد التي قدمها ما يأتي:-

أ -استشهد ابن عقيل بالقران الكريم وكان ينبغي عليه أن يتسع أكثر في عرض النص القرآني والحديث النبوي ، فاستشهاده بهما قليل إذا ما قورنا بالشعر.

ب - استشهد ابن عقيل بشواهد شاذة لا يستعملها احد أو يجري كلامه مجراها .

ج- شواهد ثقيلة الجرس وعرة التركيب.

د – شواهد نابية يأباها الذوق السليم وترفضها القيم الأخلاقية .

هـ – شواهد مجهولة النسب أو موضوعة ، لتعزيز قاعدة شاذة أو ما شابه ذلك .

٢- مسألة العامل النحوي الذي اعتمده النحاة في كتبهم اعتماداً كلياً وجعلوه من قواعد النحو الأساسية واشغلوا فيه أفكار المتعلمين ، ولو نُظر إليه على انه أعمال للفكر في اللغة لا على انه من قواعدها لكان خيراً وأفضل للمتلقين .

٣- التعليل النحو الذي فتح بابه الخليل بن احمد ، وقد صرّح بأنه إنما يرى في ذلك رأياً ، ولغيره أن يرى سواه [١٣] . فلما توفى الله الخليل شرعت العلة النحوية تلامس جميع الكتب والبحوث النحوية

٤- التأويل النحوي ، وهو ما رآه النحاة موافقاً لأقسِتهم تأولوه ليوافق القواعد التي وضعوها [١٤]. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ، أن البصريين لا يجيزون إلغاء عمل الفعل القلبي إذا تقدم في الكلام ، وقد ورد شاهد بخلاف ذلك فأوّلوه ، وهو قول الشاعر :

كذاكَ أدّبتُ حتى صار من خُلُقي أني وجدتُ مِلاكُ الشيمةِ الأدبُ

إذ أوّله البصريون على إضمار لام الابتداء أو ضمير الشأن ، والتقدير : أني وجدت لملاكُ ، أو أني وجدته [١٥] .

٥- التوهم ، وهو أن يعجز النحويون عن رد مسألة من المسائل إلى اقيستهم فيعمدوا إلى ما لا وجود له فيتخيلوه ، ويجعلوه لهم نحواً افتراضياً فيكون من ذلك أن يرفعوا غير المرفوع على التوهم ،

وينصبوا غير المنصوب على التوهم ، ويجـروا غيـر المجـرور علـى التوهم ، وربما صرحوا بذلك .

٦- الضرورة الشعرية ، وقد جعل النحاة من الضـرورة الشـعرية فأسـاً تكسر به قواعد اللغة ، فللشاعر أن ينصـب المرفـوع إن شـاء والعكـس صحيح وكتب النحو المنهجية مليئة بذلك ، ومن أمثلة ذلـك التـي نعجـب لها قول الشاعر الذي ذكروه في كتبهم :

نادَوهم أن ألحِموا ألا تَا قالوا جميعاً كلُّهم ألا فَا

قال النحـاة : أراد فـي صـدر البيـت (ألا تركبـون) فحـذف الـراء والكاف والباء والواو والنـون للضـرورة الشـعرية ! وأراد فـي العجـز (ألا فاركبوا) فحذف الألف والـراء والكـاف والبـاء والـواو للضـرورة الشعرية أيضاً![١٦]. ومن أعجب العجـب أنَّ فريقـاً مـن النحـاة جعلـوا فواتح السور في القران من هذا الحذف للضرورة [١٧] .

إن واقع مناهجنا النحوية هـذا انعكـس سـلباً علـى أداء الطلبـة وأدّى الى ضعف مستوياتهم اللغوية ، ويمكننا بيان هـذا الضـعف مـن خـلال ما يأتي :-

١- كثرة الأخطاء النحويـة التـي يقـع فيهـا الطـلاب فـي محادثـاتهم وكتاباتهم وقـراءاتهم وأوراقهـم الإمتحانيـة ، وقـد امتـد هـذا الخطـأ النحوي المقروء والمكتوب الـى قاعـة الـدرس النحـوي ، فمـا بالـك بالدروس غير الاختصاص ، او بالاقسـام العلميـة الاخـرى التـي كثـر فيها اللحن والتحريف واشاعة التراكيب الدخيلة على العربية .

٢- إننا نجد طلبة العربية في مراحلهم المختلفة يزدادون ضعفاً في الأداء النحوي، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الطلبة يسيرون على خلاف المعادلة التعليمية ، فالطالب يكتسب مهارات نحوية في كل مرحلة تعليمية ، وكلما تقدم مرحلة ازداد علماً واتقاناً ، إلا إننا نجد طلبتنا كلما تقدموا في دراسة النحو ازدادوا عجزاً في اكتساب المهارات النحوية ، وهذا يؤدي إلى ضعف مستوياتهم في الأداء اللغوي بصورة عامة ، وهذا ما أشارت إليه الدكتورة عائشة عبد الرحمن رحمها الله إذ قالت : " الظاهرة الخطيرة لازمتنا اللغوية هي أن التلميذ كلما سار خطوة في تعلم اللغة العربية ازداد جهلاً بها ونفوراً منها وصدوداً عنها ، وقد يمضي في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط فيتخرج في الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه ، بل قد يتخصص بدراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها ويعيبه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التي هي لسان قوميته ومادة تخصصه " (١٨).

٣- عجز الطلاب وقصورهم عما يجول في عقولهم من أفكار وخواطر ، أي إنهم لا يمتلكون القدرة على إنشاء لغة عربية واضحة بسيطة تنقل أفكارهم إلى الآخرين .

٤- إنَّ الطلاب ينظرون إلى النحو على انه يُتعلم لضبط أواخر الكلمات وتمييز صواب الكلام من الخطأ ، وهذا الموقف منهم أودى بهم إلى التقصير في اكتساب جوانب أخرى للنحو ذات اثر كبير ، كالجانب الدلالي مثلاً إذا جازَ أكثر من وجه إعرابي في اللفظة أو

التركيب فكل وجه إعرابي لـه دلالـة تختلـف عـن الآخـر ، فـالمنهج النحوي المقرر هو ما ابهم ذلك ، لان كتب النحو القديمـة ركـزت علـى الأوجه الإعرابية ولم تبين الأسرار الجمالية والدلالية في هذه الأوجه.

٥- عجز الطالب عـن اسـترجاع معلوماتـه ، وتـذكرها لـدى تصـديهِ للإعراب أو تطبيق القاعـدة النحويـة ، وقصـوره عـن القيـام بعمليـة التحليل والتركيب والحِكم التي يستلزمها الإعراب النحوي [١٩].

هذه أهم الآثار السلبية التي خلفتها المناهج النحويـة فـي أقسـام اللغـة العربية ، إذ لا يخفى على المشتغلين في علوم العربيـة مـا نشـهده اليـوم من ضعف كبير لدى طلبة العربية ، إذ نجـد الطالـب الجـامعي فـي أول قبوله ينفر من هـذا القسـم ويصـفهُ بأوصـاف لا تليـق بسـمعة هـذا القسـم الجليل، الذي يتعامل مع لغة القران الكريم المحفوظة بحفـظ هـذا الكتـاب العزيز ، قال تعالى : ((إنا نحنُ نزلنا الذكر وإنّا لهُ لحافظون)) [٢٠].

إن الجهود التي بـذلت فـي سـبيل تطـوير منـاهج تـدريس النحـو وتيسير تعليمه لم تجدِ نفعاً ، لأنها لم تجد طريقهـا إلـى المـنهج النحـوي الجامعي المأمول ، فبقينـا نقـر التوصـيات والمقترحـات ، ثـم نعـود لتعليم النحو العربي من كتب القـدماء بـدءاً مـن منظومـة ابـن مالـك وشروحها ، وانتهاءً بالآجرومية وشذور الـذهب وشـروحها ، لـيس فـي هذا القول تقليل من قيمة تلك الكتب ومؤلفيهـا المحققـين الأجـلاء ولكـن تعقيد مادتها النحوية وأسـاليب تأليفهـا ، وقدامـة عباراتهـا وغرابتهـا ، هو ما يشكو منه طلابنا ، وهـو مـا نسـعى إلـى تجـاوزه فـي النحـو التعليمي ونتركه ذخيرة للنحو العلمي .

المنهج النحوي المأمول (حلول ومقترحات)

إن درس النحو اليوم بحاجة ماسة إلى منهج جديد يأخذ من القديم ما بقي نافعاً وجديراً بالحياة ، وتبقى دراسة النحو القديم جزءاً من الدراسة التاريخية للمناهج ، ومن الدراسات القديمة لوصف ما قام به هؤلاء العلماء الكبار وفقاً لمعطيات عصرهم .

إن علم النحو لا يجوز أن يوصف بالصعوبة والتعقيد ، ولا يصح أن تجوز فيه مقولة التيسير فليس هناك من علم يوصف بالسهولة أو الصعوبة ، فالعلم دراسة لظاهرة كونية اجتماعية أو مادية لمعرفة القوانين التي تسير وفقها هذه الظاهرة ، وللتحكم فيه في هذه القوانين، وللكشف عن الخصائص والمزايا والأسرار، ومحاولة تفسير ذلك تفسيراً موضوعياً، والموضوعية تقاس هنا بحسب الظاهرة أو العلم ، إذ ليست الموضوعية واحدة في كل العلوم .

ولقد درس العلماء القدماء النحو العربي بالمنهج الذي ولّد مجمل الظروف الحضارية التي كانت محيطة بهم، وسار وفق أهداف دينية واجتماعية وتعليمية رأوها ، فجاء هذا العلم التراكمي الذي أضاف إليه اللاحق شيئا له علاقة باللغة وأشياء لا علاقة لها باللغة ، فتضخمت كتب النحو بأشياء بعيدة كل البعد عن اللغة وبعيدة عن العلم وهدفها الحقيقي .

لذا أضع أمام القارئ الكريم جملة من المقترحات والحلول التي يجب أن يتصف بها المنهج النحوي المأمول ، وقبل أن اذكر هذه الحلول ينبغي علينا أن نذكر أولاً المقترحات العامة التي بدورها تؤثر

تأثيراً مباشراً في المناهج النحوية والأداء اللغوي لطلبة أقسام اللغة العربية وهي :-

١- استصدار القرار السياسي اللغوي الواضح بحماية اللسان العربي وتطوير تعليم علومه بما فيها علم النحو ، وتشكيل لجنة من اللغويين والتربويين والسياسيين تكلف بوضع فلسفة المنهج اللغوي وغاياته وسبل تحقيقها.

٢- إنشاء كلية خاصة باللغة العربية (كلية اللغة العربية) لتتضمن الاختصاصات اللغوية المتعددة كقسم النحو والدراسات اللغوية ، وقسم الأدب ، وقسم الدراسات القرآنية ، وغيرها .

٣- القبول في قسم اللغة العربية يكون على أساس المعدل العالي لخريجي الإعداديات ولا أبالغ إن قلت : إن معدل قسم اللغة العربية ينبغي أن يساوي معدلات القبول في كلية الطب والهندسة ، لأن هذا التخصص يمس حياة الأمة كافة ، وهو اخطر من بقية التخصصات وحاجتنا إليه في حفظ الهوية حاجة لا حدود لها ، وتكون مهمة هذا القسم تخريج أساتذة علوم العربية للتدريس في كل مراحل التعليم .

٤- التشدد المطلق في اختيار أساتذة علوم العربية وإعدادهم إعداداً علمياً وتربوياً ،يتناسب مع مرحلة التعليم التي يعمل فيها هؤلاء الأساتذة ، وتحسين أوضاعهم المالية،ومساواتهم بأصحاب اختصاصات العلوم البحتة .

٥- مراعاة الاختصاص الدقيق لأستاذ النحو العربي ، وعدم إعطاء هذا الدرس لأصحاب الاختصاصات اللغوية الأخرى ، ففي ذلك وأد

لهذا الدرس ، إذ لا ينبغي أن يتصدى لتدريس النحو العربي في الجامعة إلاّ من اختص بهذا الدرس تعلما وعلماً وممن له خبرة في تدريس النحو ، تزيد –في اقل تقدير–على خمس سنوات .

٦– فرض التكلم بالفصحى على كل الأساتذة في قسم اللغة العربية ، وفرضها كذلك على وسائل الإعلام والإعلان ، وعلى كل وسائل الاتصال المسموعة والمقروءة .

أما المقترحات الخاصة بالمنهج النحوي فيمكن إجمالها فيما يأتي :–

١– تقليل المادة النحوية التي يكثر فيها الكلام والإسهاب ، فمثلاً تحدث النحاة كثيراً في باب المفعول به وأسهبوا بالكلام عنه في صفحات عديدة من كتبهم ، ونستطيع القول عن المفعول به : هو ما وقع عليه فعل الفاعل فنصبه،وقد يتقدم على الفاعل وعلى الفعل أيضا نحو (قرأ محمدٌ كتاباً، وقرأ كتاباً محمدٌ ، وكتاباً قرأ محمدٌ) ويجب تقديمه في حالتين ، الأولى : أن يتصل الفاعل بضمير المفعول ، نحو (سكن الدارَ مالكُها) والثانية : أن يقع بين أما وجوابها نحو : (أما الجائعَ فاطعم). انتهى .

ومثال آخر تابع المنادى من صفة أو بدل أو عطف أو توكيد قد استغرق الكثير من الصفحات في كتب النحو، ونستطيع إيجازه بخمس كلمات وهي (قدّر قبل التابع (يا) محذوفة) وهذا يعطيك المحل الإعرابي المناسب للتابع من غير الخوض في التعليلات والمطولات.

٢- إن إعادة تنسيق مناهج النحو لن تكون مثمرة ما لم ينظر في الشواهد والأمثلة التي تنمي السليقة اللغوية ، وتهذب الأذواق ، وتقرب النحو إلى العقول ، وتحببه إلى النفوس ، وينبغي مراعاة الشواهد النحوية في الجوانب الآتية :-

أ- الإكثار في الشواهد القرآنية والتعمق فيها ، لأن كتاب الله يأتي في مقدمة الشواهد النحوية لبلاغته المعجزة، وروعة أسلوبه ، ورفعة معانيه ، قال الفخر الرازي: " وإذا جوّزنا إثبات اللغة بشعر مجهول فجواز إثباتها بالقران العظيم أولى وأنا شديد التعجب منهم – أي من النحاة – فإنهم إذ جعلوا ورود القران دليلاً على صحتها كان أولى "[٢١]. فالقران هو المنطلق في تقعيد أصول اللغة ، ومنه نستمد القواعد ، وفي ضوئه تُدرس الأساليب اللغوية المختلفة .

ب- إنّ الوقوف عند عصر الاحتجاج وحده ضيّق السبيل ، وجعل النحاة يدورون في فلك الشعر القديم ، ويعيدون ما ذكره السابقون ، أو يستشهدون بشعر مجهول النسب ، أو موضوع لتعزيز رأي من الآراء لذا علينا اليوم أن نجدد الخطاب النحوي ، فليس للنحاة في هذا العصر أن يقفوا عند عصر الاحتجاج ، وإنما ينبغي أن يمتد استشهادهم بالشعر البليغ الجاري على أساليب العرب الفصحاء في التعبير ، ليواكبوا مستجدات العصر .

وقد ظهرت عند القدماء مواقف كادت تكسر الطوق ، ومنها موقف الزمخشري الذي استشهد في تفسيره بيت أبي تمام :

هما اظلما حاليَّ ثُمتَ أجْلَيَا ظلامَيهُما عن وجهِ أمردَ أشيبِ [٢٢] .

قال الزمخشري عن أبي تمام :-" وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء :الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه" [٢٣].

جـ - التخفيف من الشواهد الشعرية ، بتنخيلها ، وحذف الشواهد التي تضم ألفاظاً نابية أو منافية للذوق والخلق الرفيع ، وكذلك حذف الشواهد المجهولة النسب والمصنوعة للتأويل النحوي أو الإنتصار لمذاهب النحاة .

٣- توحيد حد المصطلح النحوي ، فهناك مصطلحات تعددت تعاريفها ، وهذا يؤدي إلى اضطراب في المناهج وتشتيت في تفكير الطالب ، ومن هذه المصطلحات المتعددة التعاريف : (الإعراب ، الجملة ، النكرة ، التمييز ، وغيرها) .

٤- فصل المصطلح الصرفي عن المصطلح النحوي لتداخلهما في كثير من الكتب النحوية ، ومن أمثلة ذلك (النعت والصفة ، الفعل الناقص ، اسم الفاعل، واسم المفعول ، الصرف والممنوع من الصرف ، وغيرها).

٥- تخليص الكتب النحوية مما علق بها من آثار العلوم الأخرى ولا سيما التعليل الذي اخذ جزءاً كبيراً من المناهج النحوية من غير أن يأتي بمردود نافع للمتعلمين ، بل هو أعمال للفكر وجهد عقلي على المتعلمين .

٦- تجنب فصل مادة النحو العربي عن علوم العربية الأخرى كالأدب والبلاغة ،وتدريسها في نصوص تكاملية .

إن دارس النحو اليوم لا يحتاج نحواً يشبه نحو علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦ هـ) الذي قال فيه أبو علي الفارسي :" إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء "[٢٤]. وذلك لان الرماني كان يمزج النحو بالمنطق فيزيده تعقيداً .

إن النحو الذي يريده المعاصرون هو ما كان سهل التناول واضح القواعد ، رائع الشواهد والأمثلة ، بديع العرض والشرح ، معبراً عن روح العصر، ويبقى النحو الذي عرضته الكتب القديمة مصدراً مهماً للدارسين المختصين الذين يريدون أن يعرفوا أسراره ، ويقفوا على الآراء المختلفة ، وما قاله النحاة في هذه المسألة أو تلك ، فللمتخصص في علم النحو أن يدرس الصغيرة والكبيرة ، إلا إن طلبة الدراسات الأولية بحاجة ماسة إلى اصطناع المنهج النحوي المنشود الذي نأمله في قابل أيامنا إن شاء الله تعالى ، والحمد لله رب العالمين.

الهوامـــــــــش

١- الخصائص : ٣٥/١ .

٢- الصاحبي في فقه اللغة : ٧٧

٣- تأويل مشكل القران :١٤

٤- مقدمة ابن خلدون : ٥٤٥

٥- ألمصدر نفسه

٦- ينظر اثر القران والقراءات في النحو العربي : ٣٠

٧- ينظر أحياء النحو : ٤١-٤٢

٨- الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها:١٢١-١٢٢

٩- نحو التيسير دراسة ونقد منهجي : ٩ .

١٠ - ينظر تعليم اللغة بين النظرية والتطبيق : ٢٠١-٢٠٢ ، وطرق تعليم اللغة العربية :١٦٧-١٦٨.

١١ - كتاب المعلمين (مجموعة رسائل الجاحظ) : ٣٨/٣ .

١٢ - ينظر طرق تعليم اللغة العربية : ١٧١-١٧٢.

١٣ - الإيضاح للزجاجي :٦٦.

١٤ - ينظر نحو التيسير : ٩ .

١٥- ينظر شرح ابن عقيل : ٤٩/٢ .

١٦- ينظر شرح شافيه ابن الحاجب: ٢٦٦/٤ ،وشرح ابن عقيل : ١٥٩/١.

١٧- ينظر شرح الشافية : ٢٦٤/٤.

١٨- لغتنا والحياة :١٠١ .

١٩- ينظر طرق تعليم اللغة العربية : ١٧١-١٧٢ .

٢٠- الحجر :٩ .

٢١- تفسير الرازي :٩/٤٥

٢٢- ديوان أبي تمام :٦٩ .

٢٣- الكشاف:١/١١٩ .

٢٤- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة :٤٥ .

مصـــادر البـــــحث

١- القران الكريم

٢- اثر القران والقراءات في النحو العربـــي ، لمحمـــد ســـمير نجيـــب اللبدي ، دار الكتب الثقافية / الكويت / ط١ /١٩٧٨م.

٣- إحيـــاء النحـــو ،لإبـــراهيم مصـــطفى ، مطبعـــة لجنـــة التـــأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ١٩٥٩م.

٤- الإيضاح في علل النحو للزجـــاجي ، تحقيـــق مـــازن المبـــارك ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـــ - ١٩٥٩م .

٥- البلغة في تراجم أئمة النحـــو واللغـــة ، للفيـــروز آبـــادي ، تحقيـــق محمد المصري ، جمعيـــة إحيـــاء التـــراث الإســـلامي ، الكويـــت ،ط١ ،١٤٠٧ هـــ

٦- تأويل مشكل القران ،لابن قتيبة ، تحقيق السيد احمد صقر ، ط٢ ، ١٩٧٣م

٧- تعليم اللغة العربية بين النظرية والتطبيق للدكتور حسن شحاتة، ط١٩٩٢،١م .

٨- تفسير الرازي المسمى (مفاتيح الغيب) ، لفخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٩- الخصائص لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، عالم الكتب، بيروت .

١٠- ديوان أبي تمام ، مطبعة دار المعارف .

١١- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ،لابن عقيل المصري ، مكتبة دار التراث ، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩م ، ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ، لمحمد محيي الدين عبد الحميد .

١٢- شرح شافية ابن الحاجب ، لرضي الدين الاستراباذي ، تحقيق محمد نور وآخرين دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ١٩٧٩م.

١٣- الصاحبي في فقه اللغة ،لابن فارس، تحقيق مصطفى الشويمي ، بيروت .

١٤- طرق تعليم اللغة العربية ، لمحمد عبد القادر احمد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ،١٩٥٤م.

١٥- كتاب المعلمين (مجموعة رسائل الجاحظ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط١ ،١٩٧٩م.

١٦- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ،للزمخشري ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
١٧- لغتنا والحياة ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف بمصر .
١٨- مقدمة ابن خلدون ، لعبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، دار القلم بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٤م.
١٩- الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها، لمحمود احمد السيد ، دار العودة ، بيروت ، ط١،١٩٨٠م.
٢٠- نحو التيسير ، دراسة ونقد منهجي ، لأحمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد،١٩٨٤م.